العلاّمة إبرهيم الجبالى

فوجئت بقارىء يكتب لجريدة الأهرام راجيًا أن يغيّر عنوان الشارع الذى يسكن فيه، فيطلق عليه اسم راحل مشهور من رجال الفنّ، وحجته أن الشارع معروف باسم من يُدْعَى إبراهيم الجبالى، وهو رجل غير معروف، ولا أدرى لماذا تسرّع الأستاذ أحمد بهجت فنشر خطاب القارىء الغافل فيما يكتب تحت عنوان (صندوق الدنيا) ونحمد الله أن تواترت ردود القراء تستنكر ما قاله القارئ، وتعلن أن فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم الجبالى رحمه الله، كان من أعلام عصره، فهو عضو جهير بجماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وشيخ لكلية اللّغة العربية بجامعة الأزهر، وبها مدرّج فسيح يحمل اسمه الكريم، وعضو بمجلس الشيوخ المصرى، وصاحب المؤلفات الدسمة فى التفسير والحديث والتشريع الإسلامى! وقد اختير لتحرير بابَى التفسير والحديث بمجلة الأزهر قرابة تسع سنوات صار فيها من أساتذة المجلّة الممتازين، هذا كله قد غفل عنه القارئ، ليؤثر بالشارع الذى يقطنه اسمًا من الأسماء التى ترتزق بالغناء! وهكذا يُغفل تاريخ الأفذاذ من النابهين.

أول لقاء:

كنت طالبًا بكلية اللّغة العربية، والأستاذ الجبالى عميدها، فبهرنا نحن الطلاب أن نجده يوالى زياراته للأساتذة فى قاعات المحاضرات، مُستمعًا ومناقشًا، ومفيضًا فى الشرح والتحليل على نحو يدهش، لأن الأستاذ لم يكن يتخصص فى علم واحد، بل كانت علوم الدراسة جميعها موضع درايته، فهو يناقش فى دروس النحو والصرف، والمنطق، والأصول، وفقه اللّغة والتاريخ، والأدب، مناقشة مَنْ وقف على أسرار كل علم من هذه العلوم، وكان الأساتذة وهم حينئذ من أفاضل

الباحثين يخشون مفاجآته، ويعدون الدروس إعدادًا مثمرًا يُراعى شتى الاحتمالات، كما كانت عادته الطواف بلجان الامتحان الشفوى، ليستمع الأسئلة والإجابة معًا، وإذا كان الأستاذ الممتحن يدقق السّئوال أمام العميد، فلا تسلْ عن موقف التلميذ، على أن الشيخ الجبالى كان عطوفًا رحيمًا، يعرف أن الطالب مبتدئ، ولا يُكلف بما لا يطيق.

وكانت الدراسة دراسة بمفهومها الصحيح، إذ يؤخذ الغياب اليومّى للطلاب، ويحاسب كلّ طالب إذا تأخر بدون عذر، على أن الذى يقبل العذر ويبتّ فى أمره هو شيخ الكلية نفسه، ومن عادته أن يسأل الطلابَ أسئلةً علميّة، فإذا أجابوا سمح لهم بالتخلّف لأمد محدود، أمّا إذا أظهروا الجهالة فلن يأذن لهم بساعة واحدة، وقد اضطررت للتخلف ذات يوم، فذهبتُ إلى مكتب الشيخ باسطًا العذر فى طلب موجَز، فقال لى: اجلس يابنىّ، وكان معه جماعة من المدرسين، يصغون فى اهتمام، وابتدرنى قائلا: عليك بإعراب هذا البيت:

وكُلُّ رفيقى كل رَحْلٍ وإنْ هُما تعاطَى القنا قَوْمَاهُما أَخَوان

فابتسمت! وقلت: ياسيدى سأعرب البيت كما تودّ، ولكننى أنا سأسألك عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد العلماء الذى أخطأ فى إعرابه من أئمة النحو، فائتلق وجه الشيخ بالنور، وكأنه يسمع بشرى سعيدة هبطت عليه فجأة، وقال: الله أكبر يابنى، مادمت تعرف مَنْ أخطأ فى إعرابه، فأنت على علم بإعرابه، أما القائل، والمناسبة فأنا شخصيا لا أعرف عنهما شيئًا، لقد جئت بآبدة! لقد جئت بآبدة، فابتدرتُ أقول إن «كلّ» فى أول البيت مبتدأ، والخبر «أخوان» فى آخره، والقائل الفرزدق، والمناسبة وصف ذئب قابله فى الصحراء ودعاه إلى طعامه، والذى أخطأ ابن هشام فى المغنى.

نهض الشيخ واقفا، ومدّيده الكريمة محييا، فقبّلتها شاكرًا، وقال لى: خذ أجازة كما تشاء يابنى، ولا تستأذن منى، ثم التفت إلى الأساتذة قائلا: نحن

نحرص على حضور المتعلمين من الطلاب ليستفيدوا، أما الطالب العالم، فهو أستاذ يحضر ويغِيب.

فى منزل الشيخ:

مضى أسبوعان، فقابلنى أستاذى الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بالكلية، فقال لى: الشيخ الجبالى حدّثنى عنك مادحًا، فقلتُ له: إنك أديب تكتب فى مجلة الرسالة، فقال لى أحبّ أن يزورنى فى منزلى فى أى يوم يريد بعد صلاة العشاء مباشرة، فقلت للأستاذ: ومن أنا حتّى أشغل وقت الشيخ؟ قال: يابنىّ، هو الذى اقترح، وطلب أن أبلّغك، فلاتبطئ.

ذهبت فى اليوم نفسه إلى منزل الأستاذ، ودخلت حجرة الجلوس، لأجده جالسًا على سجادة طويلة، وقد لبس جلبابًا أبيض، وبيده مسبحته، وعمامته البيضاء تنسجمُ مع الوجه واللّحية والأسنان، وكلها تأتلق بالنور، فقال لى: اجلس مَعِى على السجادة يا بنّى، إن الأرض تريحنى، وهى أمّنا، ومكان السجود فى الصلاة، لقد سمعتُ عنك من الأساتذة ماسرّنى، فرأيت أن أسمر معك.

قلتُ بل أنا الذى حرصتُ على لقائك منذ قرأتُ لك، إذ لاتفوتننى فَائتَةٌ مما تكتب فى مجلات الأزهر، وهدى الإسلام، والإيمان، وجريدة الأهرام أحيانًا، فقال الشيخ متواضعًا، ولعلّك ترضى، قلتُ: ولِمَ أحرص على تتبّع آثارك إذا لم أكن راضيًا، وعندى سؤال أدّخره من قديم بشأنك، أفتأذن؟ قال على الرّحب.

قلت: لقد ذهبتَ إلى بغداد منذ بضع سنوات مندوبًا عن الأزهر، لتلقى كلمة فى تأبين أحد الكبار من رجال السياسة هناك، ونقلت الصحف حينئذ أنك فى كلمتك لم تخّص الراحل بتأبين خاص، بل تحدثت بما يشبه المحاضرة العلمية عن الموت والحياة! وعُدّ ذلك خروجًا عن المقام.

قال الشيخ: اعلمْ أنّى حين ذهبت مندوبًا عن الأزهر، أعددت كلمة تخص الفقيد، ولكنّى فوجئت بسبعة خطباء قبلى، يعيدُ كل واحد ما قال سابقه، وفى كلمتى التى أعددتُها تكرار لما سمعت، ولم أرَ أحدًا من هؤلاء بدأ الكلام باسم الله

وحمده، فقلت أنت مندوب الأزهر فابدأ بحمد الله واسمه، وتحدثْ عن الموتِ وحقيقته التى تجعله انتقالاً من دارٍ إلى دار، ثم انطلقت أعلن أن الفقيد يحيا فى داره الثانية ليحصد ثمرة ما قدّمه فى الدار الأولى، وقد أجمع المتكلمون على تعداد محاسنه، فهو إذن يتلقى جزاءَ هذه المحاسن حيا عند ربّه، وأن على رجال السياسة أن يعلموا أنهم كغيرهم سيلاقون هذا المصير، ولابد أن يُحسنوا العمل، لأن الله لايضيع أجر من أحسن عملا، ثم استشهدت بطائفة من الآيات والأحاديث، داعيًا للفقيد بالرحمة، وموجّهًا السامعين إلى استحضار ما انتهى إليه الراحل من مآل، هذا خلاصة ماكان، وأذكر أن بعض زملائى فى الرحلة قال لى: لقد أشعرتنا حقا بأننا فى حفلة تأبين، وأنك تتحدّث واعظًا باسم الأزهر الشريف.

قلت: لقد استرحتُ لما سمعت، وأستطرد فأسأل سؤالاً آخَرَ؟ لماذا اخترت سور النور، والحجرات، والرعد، ولقمان، مجالا لتفسير كتاب الله بمجلة الأزهر، ولم تبدأ بالفاتحة والبقرة كما فعل صاحب المنار؟

قال الشيخ: وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله، لقد بدأت بتفسير سورة النور، لأن سائلا تقدّم لمشيخة الأزهر راجيا تفسير قول الله عز وجل

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

فحولت المشيخةُ إلىَّ السؤال طالبة أن أجيب عنه على صفحات المجلّة، وحين تأملت الآية الكريمة ناظرًا إلى ما قبلها وما بعدها من الآيات وجدت أن السورة الشريفة عقد متناسق الحبات، وأن الصلات المتشابكة بين الآيات تخفى على الكثيرين من المفسرين، بله القراء وعندى اعتقاد بهذا التلاحم العضوى، لأن القرآن رتّب بما شاءه الوحى المنزل، فكان جبريل يجتمع بسيدنا رسول الله ليحدّد مكان كل آية من السورة، ولن يكون هذا التحديد عفويًا كما اتفق، بل لابد من نظام يجمع هذا المتفرق فى تسلسل منسجم، لذلك رأيت أن أبدأ بتفسير السورة جميعها، موضحا أثر ترتيب الآيات فى التئام الوحدة الجامعة، وقد يخالفنى بعض العلماء، ولكنى أتحدث عما أطمئن إلى سلامته، وهكذا بدأت بتفسير سورة النور،

(١) سورة النور.

ثم جاء سؤال يسأل عن معنى قول الله فى سورة الرعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

وأحالته المشيخة إلّى، ففسرتُ السورة جميعها مستعينًا بتأييد الله، أما سورة الحجرات فهى سورة الأخلاق فى كتاب الله، وتفسيرها مما يقوّى الفضائل الإنسانية، فاتجهت إليها بدون سؤال، بل بوحى من خاطرى الخاص، وكذلك اتجهت إلى تفسير سورة لقمان، وقد أضْطر إلى تفسير آيات مقتطعة من سور كريمة لظروف عاجلة يتطلبها السائل المتسرع، بدون أن أغفل عن إيجاد الرابط بين السابق واللاحق، والله هو الموفّق.

وما كاد الشيخ يصل إلى هذا المقطع، حتى جاء من نَبَّهَهُ إلى زوّار قدموا من بلدة الرحمانية ـ موطنه الأصلى بالبحيرة ـ فخرج لاستقبالهم، وسرعان ما رجع ليقول لى: إننى سأتغدّى معه سمكاً فى الغد، لأن أقاربه قد أحضروا السمك الكثير، وهو يطلب حضورى بعد صلاة العصر مباشرة، لأنه لايتناول الطعام إلا مرتين فى اليوم، الأولى فى الصباح، والثانية بعد العصر، وعلى هذا درج منذ عشرين عامًا! وحاولت الاعتذار فلم أفلح، وانصرفت على ميعاد قريب.

مرة أخرى:

رجعت إلى منزل الأستاذ فشاهدت من مروءته وبشاشته مامَلأَنى إعجابًا بتواضعه، ثم اتجهنا بعد الغداء إلى مجلس كمجلس الأمس، حيث جلس الأستاذ على السجادة بجوارى، وابتدأ يقول، إنّه فكّر بعد خروجى في رحلته إلى بغداد، فتذكر رحلتيْن غاليتيْن قام بهما إلى مكانيْن قاصيَيْن، أولهما مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وثانيهما دولة الهند مندوبًا عن الأزهر مع بعض الأجلاء من العلماء، فقلت: هى ثمرات دانية القطوف، وأنا على شوق زائد لاستماع الطرائف عن هاتين الرحلتين.

فقال الأستاذ: هى طرائف حقا، فقد جاءت رحلتى إلى الحجاز فى زمن كثر

(١) سورة الرعد.

فيه الجدل بين علماء مصر وعلماء الأرض المقدسة عمَّا يسمّى بالتوسل، وتطرف كل فريق فى اتجاهه، وفى المتكلمين من أولئك وهؤلاء من يتمسّكون بالنظر الجزئى، دون شمول متسع، وهم جميعًا علماء كرام يجاهدون فى سبيل الله، ويسعون لإعلاء الإسلام، وقد عرف مكانى بعض علماء الحرم المكى، فسارع أحدهم لنقاشى، فأصغيت لكل ما قال، ثم قلتُ له: أنا عاتب عليكم، كما أعتب على من يناقشكم من علماء مصر، لأن المسائل الدينية يجب أن تُنَاقَش فى جو أخوى تضيئه بشاشة الإسلام، ولايزال علماء الإسلام يتفقون ويختلفون منذ جدّت أحوال معيشيّة تتطلب الحكم الشرعى قياسًا واستنباطًا، ورأينا التاريخ يسجّل على أصحاب التُّؤَدَة والإنصاف أنهم يسلكون سبيل المتقين، كما رَأَيْنَاهُ يُسجل على مَن تورطوا فى اللجاج والحكم بالتكفير أنهم خرجوا عن الصراط السوى، وأنا أرجو أن يذكر كل مناقش رأيه مشفوعًا بالدليل، فإذا تعرض إلى رأىِ مُناظِره نَقَضَ دليله فى أدب مهذب، وستضيق شقة الخلاف متى صفت الضمائر وسلمت النيات! وكان كلامى موضع اهتمام صاحبى، فشكرنى، وجمعنى بصفوة من رفاقه، فأعدت ماقلت وانقشع غيم ثقيل.

أما الرحلة الثانية إلى الهند، فقد ظللت بها مائة يوم، حيث كنت رئيسًا للبعثة الأزهرية التى كانت استجابة لدعوة الشاعر الكبير محمد إقبال فيلسوف الهند وشاعر الإسلام، إذ لمس انجذاب كثير من المنبوذين إلى اعتناق الإسلام، وقد خوّفهم الهنادك بأمور لصقوها بالإسلام زورًا، فرأى الشاعر الكبير أن يبعث الأزهر بعض علمائه لدراسة أحوال المنبوذين من ناحية، والاتصال بمشكلات المسلمين من ناحية ثانية، مع إلقاء المحاضرات الكاشفة عن تعاليم الإسلام، والمشخصة لأدواء المسلمين فى هذه البلاد، وقد استجاب الإمام المراغى لهذا الاقتراح، ووافق المسئولون على إرساله البعثة، وكان معى الأستاذان الجليلان عبد الوهاب النجار، ومحمد أحمد العدوى، فقمنا بزيارة أكثر من خمسين مدرسة وجامعة، وعقدنا جلسات سياسية ودينيّة مع كبار الزعماء من رجالات الهند المعدودين، وألقينا أكثر من أربعين محاضرة، وكنا نستقبلُ استقبالَ الملوك، فالأفواج تتزاحم، والهتافات

تعلو، وعقود الزهر تهدى إلينا فنلبسها، وهى التحيّة الهندية لكبار الزوّار، وقد امتدّ النقاش فى جلسات طويلة مع كبار المفكرين من أمثال الزعيم الكبير محمد على جناح، والدكتور ذاكر حسين، والأستاذ الفيلسوف محمد إقبال، وهذا الشاعر الفيلسوف كان فى مرضه الأخير، وفى صوته عقدة تمنعه من الكلام، ولكنه تحامل على نفسه، وأصَرَّ على تكرار اللقاء، وكنا نشفق عليه، ولكن حماسته الإسلامية كانت تنتصر على ضعفه فى ساعات الاجتماع، وقد شرح لنا حقائق كثيرة كنا تجهلها من ناحية الإنجليز الذين كانوا يؤيدون الهندوك تأييدًا تاما، ويُعينونهم فى الوظائف الإدارية الهامة ليكونوا عامل حرب على المسلمين، إذ أن الاستعمار لم يكن يخشى من الهنادكة معشار ماكان يحذره من مقاومة المسلمين، وقد أرجف المغرضون كذبًا بأنّ المسلمين يعاونونَ الاستعمار، وهذا ما تنهض الدلائل بتكذيبه، وقد عرفنا عن غاندى ونهرو أمورًا منكرة لم نكن ندريها، لأن الجرائد المصرية لم تكن تُذيع عنهما إلاَّ المحامد، أمّا العداء البارز للمسلمين فلم نقرأ عنه فى البلاد العربية شيئًا، وهو مّما يضج منه المسلمون هناك، وقد صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المسلمين، ووضّحنا مبادىء الإسلام قدر مانستطيع، وكانت مناسبةً سعيدة يوم عيد الفطر، إذ قمنا بالخطبة والصلاة فى أكبر مساجد (بومباى) وعندى مذكرات عن هذه الرحلة أرجو أن تسعف الأيام بتبييضها وطبعها.

قلت: إن طبع هذه المذكرات ضرورى لتسلط الضوء على ظُلُمات تحيط بنا فى مصر بالنسبة لإخواننا هناك، فقال الشيخ: أرجو أن تسعف الأيام بما تريد، وقبل أن أنصرف أكّد علىَّ الشيخ أن أُكثر من زيارته، لأنه يسعد بترداد ذكرياته معى، وقال مبتسمًا: معك مفتاح دقيق يثير ذكرياتى، فلاتمسكه أمدًا بعيدًا، ثم علمت أن الرجل قد مرض، فلم أشأ أن أرهقه بما قد يتعب من الحديث، فقطعت الزيارة مكرهًا غير مختار...

* * *

العلامة عبد القادر المغربى
ورواية الحديث النبوى

علاّمة الشام الشيخ عبد القادر المغربى، تلميذُ جمال الدين الأفغانى، وصديُق محمد عبده، ونائبُ رئيس المجمع العلمى بدمشق، وعضُو مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وصاحبُ المصنفّات الرائعة فى التاريخ، واللّغة، والأدب، والتفسير، والأخلاق، هذا العلامة الأكبر أشهرُ من أن نُشير إليه بتعريف محدّد، وقد اعتدتُ أنْ أراه بالقاهرة كل عام حين انعقاد المؤتمر السنوى لمجمع اللُّغة، حيث يكون فى طليعة المتحدثين والمناقشين، وله فى كل موسم موضوع جديد يجذب الانتباه، وأماكن لقائه متعّددة بساحة المجمع، ودار الكتب المصرية، وندوة مجلة الرسالة، ومنازل الزملاء من أصدقائه الكبار، وهذا فى وقت الطلب، قبل أن تبعدنى الوظيفة عن القاهرة.

وكان أوّل التقائى به فى جمعية الهداية الإسلامية التى كان يرأسها صديقه وزميله العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر فيما بعد، إذ كنت أزور الجماعة ذات عصر مع صديقى العزيز الدكتور أحمد الشرباصى، فرأينا العلاَّمتين رئيس الجمعية، وزائره الدمشقى الكبير يتسامران فى حجرة الرئيس، وأشفقتُ أنْ أتطفّل على مجلس لست أهلاً له، وكنتُ إذ ذاك طالبًا بالسنة الأولى بكلية اللّغة العربيّة، ولكن الصديق الشرباصى أَقْدمَ جريئاً، وجرّنى معه، وكان على صلة بالشيخ الخضر، فأفْضَى إليه بما تمّ فى أمرٍ كلّفه به، واستأذن ووجدتُ من بشاشة الرجلين ما دفعنى إلى المكث لأستمع إلى مايقولان.

نقاش مثمر:

وكان العلاَّمتان رحمهما الله يتناقشان فى معنى كلمة (مُحدَّث) الواردة فى قول رسول الله ﷺ: «إن منكم محدّثين، وإن منهم عمر بن الخطاب» فأفاضَ المغربى فى معنى كلمّه المحدّث وصلتها بالإلهام، وتكلّم كثيراً فى أمور تتعلق بالاشتقاق والدين والتاريخ، ثم استطرد إلى مواقف تاريخيّه ظَهَرَ فيها إلْهامُ الله للفاروق، وكان الخضر حسين يستمع مبتسمًا، ثم اتسع له مجال التعقيب حين سكت المغربىُّ المُمتْع.

فقال إنه عثر على رواية «مُحْدث» بضم الميم وكسر الدال، وأخَذَ يفسّر المعنى على لفظها. ودارَ نقاشٌ أخَذَ يرتفع عنْ مستواى، تواردتْ فيه أسماءُ ابن جنى والاستراباذى والشّهاب الخفاجى، ثم سكتَ الخضر، فوجدتُ العلامة المغربى ينظرُ إلىّ مبتسمًا، ويقول: وما رأيُك أنت؟ فقلّبتُ كفا على كفّ، وقلتُ: لا إله إلا الله: أأُصدرُ رأيى فى مسألة لغويّة دينيّة يتناولها شيخانِ من أعلام المسلمين! مَنْ أنا؟ حسْبى أن أسمع، فَربتَ الرّجلُ على كتفى بيده الكريمة، وقال: مَن يدرىْ؟ لعلّك تسبق؟ فتشجّعتُ وقلتُ: إنّ هذا النقاش المُثمر يذكرنى بنقاش بين العلامة الإسكندرى والعلامة حسين والى، وكلاهما كان زميلاً لكما بالمجمع، وقْد حضَرَهُ الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم، فقال عنه: والحديث عن حسين والى:

ويومًا مع الإسكندرىّ رأَيْتُه ... يُجاذبُه فضلَ الحديث الشيِّقِ
فهذا يرَى فى لفظةٍ غيرما يرى ... أخوهُ، ويختار الدليل وينتقى
وأعجبنى رأىٌ سليمٌ ومنطق ... يصولُ على رأىٍ سليم ومنطق
وقد لَوَّحَتْ أيديهما فكأنها ... إشارات رايات تروح وتلتقى
ولم أَرَ فى لفظيهْما نبْر عائب ... ولم أر فى لحظيهْما لمح محنق
فقلتُ هى الفصحى بخير، وإنها ... بأمثال هذين الإمامين ترتقى

فقال الخضْر رحمه الله: أنشد الجارمُ هذه القصيدة فى تأبين الإسكندرى بالمجمع وقد سمعتُها فى حينها، وسُررتُ بمعانيها قدرَ سرورى بجودة إلقاء الجارم!

ومضتْ برهة، فوجدتُ العلامة المغربى، يقولُ لى فى ملاطفة: عندى موعدٌ خاص بزيارة عالم كبير من كرام أئمة الدين، وإذا لم تمانعْ أكونُ سعيدًا بمرافقتك لآنس! قلتُ: وافرحتاه! أبَلَغ بى الحظّ أن أسْعَى فى ركابِك، لأزَور أحدَ الأئمة! قال: هيّا!

مفاجأة:

أخذت سيّارةُ المغربى تشقّ الطريق فى شوارع القاهرة، فاجتازتْ أماكن التكدس إلى الضواحى الهادئة، مُرورًا بالعباسية والقبّة والزيتون والمطرية حتى وصلْنا إلى «عزبة النخل»، وكانتْ يومئذ أشبهَ بالقرية الصغيرة، قبل أن تَتزَاحم المنازل وتتراكب كما نرى، فأشارَ الشيخُ إلى منزلٍ صغير ليقفَ أمامه السائق، وصَحبنى إلى الباب، ففتحه بهدوء، واتجَه إلى حجرة بالدور الأوّل، فضربَ عليها ضربًا خفيفًا بأصبعه كمن يستأذن، ثم تقدّم، وأنا من خَلْفه، لنجدَ عالمًا مهيبًا يجلس متربعًا على كرسى مرّبع، وأمامَه عالم مهيب أيضًا يجلس على الأرض، ومعَه نسخةٌ من كتاب (الموطأ) للإمام مالك رضى الله عنه، يقرأُ مابها فى إجلال، فأخذ المغربى مجلسه فى خشوع خلفَ القارىء الكريم، وأشارَ فأخَذْتُ مجلسى جواره، وجعلْنَا نستمع، وأنا فى دهش حائر، لأنّ المجلس مجلسُ استماع، والشيخُ المتصدّر ينصت بدون أن ينطق، ولم يظهرْ عليهما ما يدلّ على أن زائرين قد حَلاَّ ضَيْفيْن. إذ استرسلَ القارىء، وأنصتَ السّامع، حتى إذا مضتْ قرابة ساعةٍ نهض القارئ فصافح الشيخ الجالس، واتجه إلينا فصَافَح المغربّى فى شوق، وصافحنى فى حنو كمن يسأل عنى لأول مرّة يرانى، ثم تقدمنا إلى الشيخ الكبير، فوجدتُ القارئ والمغربّى يقبلانِ يدَه فى إكبار فقلّدتُهما! ولكنّى لم أفهم شيئًا ممّا أرى!

حان الإياب، فصحبتُ العلاّمة المغربى، وأنَا فى حيرة أتّعجبُ، ورَأى الرجلُ الكبير ما يتلبسنى مِنْ تساؤُل، فقالَ ألا تعرفُ فضيلة العالم الجليل الشيخ يوسف

الدجوى، أحدَ جماعة كبار العلماء، إنّه هو الذى يَسمْع، ثم ألا تعرف العالمَ الجليل الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى عهد الخلافة العثمانيّة، إنّه هو الذى يقرأ، وللمجلس معنًى، فإنّ سلسلةَ رواية الموطّأ عن مالك لم تنقطعْ إلى اليوم، إذ يقومُ بها خلفٌ عن سلف، حتّى تتّصل بمالك، والأئمةُ الكبار يحرصون على أن يكوّنُوا حلقات مباركة فى هذه السلسلة النبوية الكريمة، فقد روى الدجوى الموّطأ عن شيخه سليم البشرى، ورَواه البشرىُّ عن شيخه إبراهيم السقا، ثم رواهُ السقا عن العلامة الأمير الصغير، ومازالتِ الرواية تتصاعد بدون بتْر حتى تصل إلى مالك بن أنَس، وهو يروى عنْ نافع، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ، ثم قال المغربى: استمعْ يا بنى! أَمَا شاهدْتَ الكوثرى يُصافح الدجوّى بعد القراءة؟ إنّ كلّ قارىءٍ يُصافح مَن يقرأ عليه، ويعتقدُ المحدّثون أنّ المصافحة تمتد من يد إمامٍ إلى إمام حتّى تصل إلى يد الإمام مالك، وقد صافَح رضى الله عنه نافعًا، وصافح نافع عبد الله بن عمر، وصافَح ابنُ عمر رسولَ الله، فكأنّ سلسلة المصافحة تَشرفُ بكفّ رسول الله، وأنا لم أصافح الشيخ الدجوى، إذ لاتتّم المصافحةُ على وجهها الشرعى إلاّ لمن قرأ الموطأ كاملاً، كما يفعل الكوثرى، ونحن حضرنَا مجلسًا للبركة فقط! وليْتَ الزمن يُتيحُ المداومة، ولكن متى؟ قلتُ للشيخ المغربى: كنتُ أتمنّى أن أُصافح أستاذنا العلامة الدجوى لأدخلَ فى سُلّم المصافحة الممتدة إلى مالك بن أنس رضى الله عنه، وتهيّبتُ أن أقول إلى رسول الله ﷺ، لأنّ مقامَه أعلى وأرفع، فلمعت عينَا الشيخ ببريق ساطع انتقلَ إلى وجهه المشرب بالحمرة فجعلَه قطعةً من الضياء، وقال: ياولدى، هذه أمنية طيبة، ولكنها متعذرةٌ مع العلامة الدجوى لأنّه لايصافحُ إلا من يَقرأُ الموطأ كاملاً دون نقص لحرف واحد، والشيخُ مريض، ولا يُعقلُ أن يبدأ بالسماع لأحد بعد العلامة الشيخ محمد زاهر الكوثرى، لأنّهُ صديقُه الأعزّ، وقد رَجَاه أن يقرأ، فاضطر إلى القبول نظرًا لمرضه الذى يحرمُه من الجلوس ساعاتٍ ممتدة إلاّ بضيق شديد، ولكنْ سأدلك على شيءٍ سار! وسكت مليا، ثم قال:

أعرفُ أنَّ الشيخ منصور على ناصف إمام المسجد الزينبى يعقد حلقةً يُقرأُ عليه بها صحيحُ مسلم، وقد قرأه على الشيخ محمد حبيب الشنقيطى رحمه الله، ومن ورائه سلسلةٌ ترتفع إلى المقام الشريف، وتتم المصافحة عقبَ كل قراءة، فاذهبْ إليه بمسجد السيدة زينب، وشاوره!

كنتُ أعرف فضلَ الشيخ منصور على ناصف، وأحتفظُ بكتابه (التاج) فى خمسة أجزاء مشروحة، خاصّة بما جُمعَ فى كُتب السّنة الخمسة، فصمّمتُ على أن أذهب إليه فى اليوم نفسه، بعد صلاة العشاء إذ اعتادَ أنْ يؤمّ الناس فى صلاة المغرب، ويجلس فى المحراب ذاكرًا متأملا حتى يؤذّن العشاء، فيؤمّ المصلين، فودعتُ العلاّمة المغربى، وأخبرتُه بما اعتزمت عليه، ورجوتُ أن يسمح بلقائى قبل سفره، فقالَ إنّه سيكون بقسمِ المخطوطات بدار الكتب المصرية غدًا بعْدَ العصر، فإذا شئتُ أن أحضر، فهذا يسرّه.

لقاء الشيخ منصور ناصف:

كنَّا على مقربةٍ من الغروب، فهرعتُ إلى المسجد الزينبى، ووجدتُ الشيخ جالساً فى المحراب حيث توقّعت، ينتظر صلاة العشاء، وهو شيخٌ جليل، يغمره وقار الشيب، أبيضُ الوجه واللحية والعمامة وقامتُه فارعة، وابْتسامُه فى اللقاء مُشجّعٌ عاطفٌ، فلما فرغَ من العشاء الآخِرة، أقبلَ الناس جميعًا من خلْفه، على تقبيل يده، وانتظرتُ كيلا أَضيعَ فى الزحام، فلّما تأهبت للخروج دنوتُ منه مُسلّما، فتلقَّانى بعطف، وسألنى فى لطف: مَن أنت؟ قلتُ: طالبٌ بكلية اللغة العربية ينشُدُكَ فى أمرٍ دينى، فقال: خيرًا، قلتُ أريدُ أنْ أنضَمَّ إلى حلقة الحديث، حين تبدأ مجموعة جديدة.

فجلس الشيخ فجأةً على سجادة المسجد، وكان واقفًا، وقال فى حنو: كم سِنّك يابنىّ؟ قلتُ أربعةٌ وعشرون عامًا، فضحك، وقال: وتُريد أن تكون من رُواة الحديث فى هذه السنّ؟ انتظرْ حتى تتجاوزَ الأربعين ليحدثَ لك وقار الموقف، وتحسّ هيبة القراءة! إنّه حديث رسول الله يافتى!

فوجمتُ قليلا، ولحظَ الشيخ انقباضى، فقال: أمامك مرحلة أُولَى، قلتُ: ماهى؟ قال ابدأ بقراءة كُتب المصطلح، وأشيرُ عليك بكتاب (شرح علوم الحديث) للحافظ ابن كثير، لأنّه مقدمةٌ جيدة لمن يريد أن يتشبّع بدراسة حديث رسول الله، وبه كلامٌ طيب عن آداب المحدّث، وإملاءِ الحديث، وسماع الحديث، والإجازة والوصيّة، وبيانِ أنواع الحديث، من صحيح، وحسن، وضعيف، ومسُند، ومرفوع، وموقوف، ومنقطع، ومرسل، ومعضل ومدلّس ومنكر!! فقلتُ: يا سيدى درسنَا مصطلح الحديث بالقسم الثّانوى بالأزهر وفيه أكثرُ ما ذكرت، فقالَ فى هدوء: كتابُ الحافظ ابن كثير، كلّه نور، كلّه نورٌ، فَادرسْه وستسعْدُ بإذن الله، ونهضَ فنهضت.

العودة إلى المغربى:

سارعتُ للقاء العلامة المغربى بدار الكتب، ولم يكنْ يتوقّع أنّى سأقابلُ الشيخ منصور بهذه السرعة، فجعلت أحَدّثُه عمّا قال لى، وأنَا أتألّم لقوله: بعد الأربعين!

فقال المغربى، إنّ شيخ المحدثين بالشام أستاذنا بدر الدين الحسينى لم يكنْ يشترط سنا لقراءة الحديث، وقد قرأنَا عليه فى دار الحديث بالأشرفية فى دمشق صحيحَ مسلم، وسنن الترمذى وكنّا عَدداً من الإخوان، فينا الصغير والكبير.

قلت: أذُكر ياسيدى أنّك كتبتَ عنه مقالة بمجلة الرسالة فى السنة التى انتقل فيها إلى جوار ربه، وقد قرأتُها واحتفظت بها:

فتألّق وجهُ الشيخ، وقالَ ما شاء الله، ما شاء الله، ثم قالَ: إنّ كتاب الحافظ ابن كثير، ليسَ هو الوحيد فى بابه، فكُتُب المصطلح من الكثرة بحيثُ لا تُحدّ، ولكنّ قراءتَه بلاشك ستعودُ عليك بالنفع.

وعلمتُ أنّ المغربّى سيسافر غداً إلى دمشق، فودعته، ولم يُتح لى أن ألقاه كثيراً من بعد، إلاّ فى مرات تعد على الأصابع إذ كنتُ أتولى التدريس فى غير مدارس القاهرة من مدُن مصر، وكانتْ زياراتُه للقاهرة لاتصادف كثيراً موسم

العطلة الصيفيّة، فحرُمت من خِيرٍ كثير بالنسبة لما كنت أرجو، ولكنّ لقاءه العابر ذو نفع عميم. .

على أنّ مجلسَ الحديث بدار العلامة الدجوى لايزال يملأ نفسيِ جلالاً وهيبة وخشوعًا، وأتمنى أن يعود هذا التقليدُ العلمى المفيد.

* * *

obeikandl.com

الشاعر الكبير أحمد الكاشف

كنا فى عهد الطلب نسمع اسم أحمد الكاشف مقرونًا باسم أحمد محرم، كما يقرن اسم شوقى بحافظ، وهم جميعًا من تلاميذ مدرسة البارودى الشعرية التى جَدّدتِ الشعر ورفعتْه من وَهدة الركاكة إلى ذروة القوة الآسرة، بحيث أصبح هذا العصر بفضل هؤلاء وزملائهم من أخصبِ عهود العربيّة، وأرقاها، لذلك كان الناشئة من زملائى يحرصون على استظهار روائعهم فى ثقة واطمئنان.

ولم أرَ مِنْ هؤلاء شوقيّاً وحافظًا ومحرمّاً رأى العيان ولكنّ الحظّ السعيد قد أتاح لى زيارة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف على غير انتظار، كما أتاح لى زيارة مطران ورب مصادفة خير من ميعاد.

كنتُ أحفظ كثيرا من قصائد الكاشف التى ينشرها بجريدة الأهرام، وأكثرها ذات طابع سياسى، لأن للشاعر هوىً خاصا مع بعض الأحزاب عن اقتناع، لاعَن انتهاز، ولكل إنسانٍ أن يميل حيث يطمئن،فكان يرسلُ شعره المؤيد لزعماء الأقلّية، مجافيًا زعيمَ الأمّة الذى أجمعتْ عليه الأكثرية، ومع هذا فلشعره سيرورة ونباهة، لأنّه يمتاز بالصدق، ويتجافى المبالغة، ويجلسُ مجلس الناصح من ممدوحه، يقترح عليه الرأى، ويحذره التورط، فالرجل ناصح مشير، لا مصفّقٌ هتّاف.

وكنت قد قرأت الجزء الأول من ديوان الكاشف، فأُعجبت بمقدمته النثرية الطويلة أكثر من إعجابى بشعره فى الديوان الأول، إذْ أصدرهُ فى عهد البضاعة المتطلعة، قبل أن يستوى على سُوقه ويستحصد، كانت المقدمة تحمل براءَةً كبراءة

الأطفال، حين يتحدثُ الشاعر عن صباه الأول، فيذكُر إخفاقَهُ فى الامتحان المدرسى، وهروبه من الكُتّاب، وضيقَهُ بمواد الدراسة، وليسَ فى هذا ما يؤاخذ، فبرناردشو أكبر أدباء الإنجليز لعهده قد اعترفَ بمثل ما اعترفَ به الكاشف، ولكنّ خيالَ الشاعر لدى الكاشف كان يخلقُ له أوهامًا من أوهام البطولة المستحبّة، فيرَى نفسه قائدًا يحكم الجنود تارة، وقاضيًا يأخذ الحق من الظالم للمظلوم تارة أخرى، ويندفُع لتحقيق ما يتخيّله فيُصاب بالعاقبة المنتظرة، وهى عاقبةٌ لايسترها الشاعرُ عن قرائه، بل يسجلها فى المقدمة محتفلا مؤكدًا، وهو بذلك يُمتع قارئه بصراحته أكثرَ مما يمتعه بقصائده، وأدبُ الاعتراف ذائع مشهور، ولكنّ الكاشف لم يتعمّد الاعتراف ليُضافَ إلى مَن أبدعُوا فى هذا المجال، بل تركَ نفسه على سجيّتها، متدفقًا مع خواطره كما تجيش فى صوره بدون تنميق أو اختيار، ومقدمته هذه تذكرّنى بمقدمة شبلى ملاط لديوانه، لأن النبع واحدٌ، عند الاثنين، براءةً وحماسةً ووثوقًا بالنفس عن رغبة وطموح.

يذكر الكاشف من مواقف الصبا هذه أن قريته الصغيرة تحدثت عن مروءة شاب شجاع رمى بنفسه فى البحر المتلاطم لينقذَ طفلَيْن أوْشكَا أن يَغرقا فى الطوفان، فَعزمَ على أن يأتى بأمرٍ مماثل، ثم واتتْه الفرصة حين علم أن امرأةً من نساء قريته أُهينتْ بالضرب فى قرية مُجاورة، فجمع عددًا من الصبية ممن هم فى سنه، وسلّحهم بالعصىّ والهراوات وتقّدم بهم إلى القرية المعتدية ليهجم على أناسها الكثيرين، وكانت النتيجة أن سقط الجيش المغير فى أيدى خُفراء القرية، ونال من التأديب مايستحق، ولولا أنهم أحداث لواجهوا حكم القضاء.

وموقفٌ أخر دَونهُ الشاعر ذاكرًا أنه علم أن شاهدَ زور شهد فى مجلس القضاء شهادةً آثمة، فرأى أن يقوم بتأديبه، وجَمّع نفرًا من تلاميذ مدرسته، وهجموا على الشاهد فأوسعوه ضربًا ومهانة، وأخذ يستجير ولا من مغيث، وكانت العاقبة مأمونة، لأنّ الرأى العام فى القرية كان مُعجبًا ببطولة الكاشف وزملائه، فحبّذوه، واستفاض له ذكر بالحمّية والبسالة، كما كان هذا الرأى العام ضائقًا جداً بإثم شاهد الزور وُجرمه الشنيع.

طرائفُ كثيرة تدور هذا المدار، ومنها ما يتعلّق بمجابهة المدرسين فى المدرسة، ومشاكسة أدعياء العلم من ذوى السُّمعة البراقة. وهى كلّها تجعل المقدمة مصدرَ ترفيهٍ لقارئها، ولعلّها كانت دافعى إلى الإعجاب بالشاعر وتتبّع قصائده، وبخاصةٍ حين أصبحَ من كبار شعراء عصره، وصارت الصّحف اليومية ـ وفى مقدمتها الأهرام والبلاغ والسياسة ـ تنشر قصائده فى الصفحة الأولى منّوهة شاكرة!

أمّا لقائى به، فقد سمح به الدهر مرّةً واحدة على غير انتظار، إذ كنتُ ذات صباح فى دار الإخوان المسلمين بالحلمّية سنة ١٩٤٦ قبلَ رحيل الشاعر إلى مثواه بعامين، فسمعتُ الأستاذ عطية الشيخ ـ وكان إذ ذاكَ مدرسًا بإحدى المدارس الثانوية ـ يقول لجار له: إنّه مضطَر للاستئذان لأنّه على موعد للذهاب إلى (القرشية) ليقابل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف، فلم أتمالكْ أن تقدمتُ للأستاذ عطية، وليَس لى به صلة مّا أسأله: كيف السبيل إلى رؤية الشاعر الكبير؟ فابتسمَ الرجل فى ود وبشاشة لم أتوقعهما، وقالَ: هيّا، فصديقى الأستاذ الضبع خارج الدّار، ومعه عربَتُه الخاصة، وسنذهبُ نحن الثلاثة إذا أردت! قلتُ: إنّها فرصة حبيبة، ومنة لا أستطيعُ القيام بشكرها، فشدّ الرجل الكريم على يدى وصحبنى.

دار الحديثُ فى الطريق عن الشاعر، فعلمتُ من الأستاذ عطية أنّه يعانى من أعباء الشيخوخة، ويشكو انقطاع الزملاء والتلاميذ عن زيارته، حتى أصبحَ فى وحدته غريبًا بين أهله، وفى ساعاتٍ يغلبه اليأس فيتصورُ أنّ جهده الأدبى قد ضاع على مدى خمسين عامًا حفلتْ أمهاتُ الصحف فيها بروائعه، وأن هذه الزيارة ضروريّةٌ لمن كان يحس إحساسه.. هنا أخذتُ أجمعُ فى ذاكرتى ما أعرفُ من روائع الشاعر، وما أعلم من مواقف فتوته ومروءته، وقلتُ: إذا أَذنَ الله ووجدتُ الاستعداد الطيب من الشاعر وزوّاره، فسأفيضُ عليهم بما أجعلُ الرجل الكبير يعلم أن شعرهَ طىُّ الصدور، وأن أبناء الكليات بالجامعة يردّدونه ويتدارسونه، وأنه يُقْرَنُ بشوقى، وحافظ، ومطران ومحرم، وأن شعراء اليوم من أمثال الأسمر،

وغنيم، ومحمود حسن إسماعيل، وناجى، وعلى محمود طه من تلاميذه، وهم يذكرون له فضله الكبير. . .

كانِ الشاعر على علمٍ بالزائرين، فقد تحدثا إليه تليفونيا، لذلك وجدناه فى غرفة الاستقبال المتواضعة، يلبس جلبابه الأبيض، وعليه عباءته الصيفية، وبيده عكازه الذى يتوكأ عليه، ولا أكتم القارىء أنى فُجعت حين رأيتُه بين أنياب الكِبَر كطائر جريح، فقد كنتُ أعرف صورته تتصدر الصحف مليئة بالشباب، ناطقةً بالفتوة، فى عينه مضاء، ولَه شارب أثيث، وفى سيمائه صلابةٌ واعتداد، حتى لقد تخيلته فارس ميدان، لا طائر دَوْحَة! فلما صدَمنى الواقع بلعتُ ريقى آسفًا.

اختصنى الشاعر بالحديث بدءًا، إذ كانَ لا يتوقّع مجيئى، فقال حين جلسنا: مرحبًا بالشاعر الشيخ، وكنت ألبس العمامة والكاكولة، فقلتُ: أمّا شيخٌ فنعمْ، وأما شاعر فأنا تلميذ صغير للكاشف الكبير؟

ضحك الشاعر وقال: فى الأزهر أساتذة كبار فكيف تكون تلميذى!؟ فأجبت، إننا جميعًا فى كلية اللّغة العربية نحفظ شر الكاشف فهو قريع شوقى، وحافظ، ومطران، ومحرّم! لقد كان (موسم الشعر) الماضى يجمُع أكثرَ شعراء مصر، ولم يكنْ فيهم مَن فاق الكاشف، حيث كانتُ قصيدته عروس الموسم.

هنا قال الأستاذ عطية: لن نتكلم نحنُ يا مولانا؛ لأنّ هذا الزائر النبيه لديه أكثر ممّا نقول، فقال الكاشف: وأنا أحبّ أن أسمعه!

قلت: وكان فى خاطرى أن تكون زيارتى مصدر سرور للرجل، إذ وقع فى روعى أن رواية شعره والإشادة بمكانته قد تُذهب بعض ما يعانى ـ قلت:

حين مات الزعيم محمد محمود رثاه مطران، ومحرم، والجارم، والعقاد، ولكّن قصيدة الكاشف كانت ذات رنين مؤثر!

هنا مدّ الرجل يده إلى يدى، وقال: يا أخى، مطران، ومحرم، أفضل منى بكثير، وأنا أُكنّ لهما من الإجلال مالاتعرف، يكفى أن أُذْكَر معهما! جئتَ بشاعرين كبيرين جداً، لا أفوقهما بحال.

قلت إنى لا أزال أحفظ قول الشاعر الكاشف فى الراحل الكبير:

تلقيتُ أنباء الشفاءَ مريحةً ... فلم أُمسِ حتى جاءنى النبأ الصعْبُ
فنحتُ وتاح الطير حولى وماجَ بى ... مكانى وغاص الماء والتهب العشبُ
خلاَ منك بيتُ المجد والفضل والندى ... ونادى المعالى أم خلا الشرق والغربُ
وضمّكَ داج فى ثرى الأرض موحش ... وكم ضاق عن آمالك العالم الرحبُ
أطوفُ به مُسْتَرْوِحًا من عَبيرِه ... وقد صبّحَتْهُ من بواكرها السحبُ
ولو كانَ جُثمان العظيم كذِكْرِهِ ... لما نالَ من جثمانك الطاهر التُّربُ
أحِنُّ إلى الماضى وما هو راجع ... وقد سار بى فيما أحاذره الركبُ
كأنى حادى الظاعنين يمر بى ... بلا رجعة سرب، ويتركنى سربُ

تهلّل وجه الشاعر وقال: لقد قلت أروع ما فى القصيدة، وأنت فيما أرى راوية كبير، فهل تحفظ شيئاً مما قال محرم فى هذه المناسبة قلت أحفظ لمحرم قوله:

من لى بملء المشرقين بيانَا ... وبما وراء النّيرين مكانَا
رُمْتُ الرثاءَ فما ظفرتُ بمنبرٍ ... يسع الرثاء ولا وجدتُ لسانا

ومن أنفس ما قال قوله:

لمّا سقوهْ النفى مُرا طعمه ... وجدوه حران الحشا ظمآنَا
لذت مذاقته فلولا أنه ... جم الوقار طوى المدى نشوانَا

فقال الكاشف: هذان البيتان استوقفانى كثيرًا وأنا أقرأ قصيدة محرم، وقد نُشرَتْ مع قصيدتى فى صدر جريدة البلاغ، وبينى وبينه من الودِّ ما لا يعصف به الموت ـ لأنّ محرمًا انتقل إلى رحمة الله، وهو أوسع منى ميدانًا، إذ قتصرتُ فى

الأغلب على الشعر السياسى، أما هو فقد تكلّم فى كلّ غرض، وراح بائساً معذبًا، مع إباء نفس، ونزاهة ضمير.

قلتُ: هذا ما أعلم، وإنك قد تحدثتَ عن محرم، فما علاقتك بشوقى وحافظ ومطران؟

قال الشاعر أجدنى متفتحًا للحديث معك على غير عادتى! لقد عادانى شوقى كثيراً مستمعًا لأرباب الوشايات، وقد أُقيمت له حفلة تكريم بقريتى، أقامها كبير وجهائها محمد شوقى الخطيب بك، وقد دَعَا فيها من كرموا شوقى فى القاهرة، وأهملنى وأنا جارُه القريب، ثم علمت أنّ شوقياً قد أشار بإهمالى، فتأثرتُ وعاتبتهُ بقصيدة نشرتها بالأهرام، وحين مات نسيتُ مواقفه ورثيته صادقًا مخلصًا، لأنه أنبغ من قال الشعر من أعلامه المعاصرين!

أما حافظ فصديق أنيس، لم أشهدْ منه ما يريب، وكان لايضنّ بالثناء الجم على زملائه، ويسعى فى قضاء مآربهم قدر مايستطيع، وأنا ليست لى مآرب، فلم أكلّفه شيئاً، ولكنى أحمل له الودّ الجم، وقد رثيتُه مرّتين الأولى عند رحيله، والثانية فى حفل أقيم لإحياء ذكراه بعد سنوات من وفاته، ومطران أبقاء الله وحفظه من أحسن من رأيتُ إخلاصًا ومروءة، تحدّث عنى مقرّظًا مادحًا على غير معرفة، وأذكر أنه قال عنى مشكورًا، : «نارىّ المزاج، زئبقى الخاطر، فخور، لم أعاشره، ولكنى طالعت أخريات قصائده فإذا هو ناصحُ ملوكٍ، وفارس هيجاء، ومقرّع أمم على التقصير، ومرشد الحيارى فى مختبط السياسة»..

لقد قال الرجل كثيراً فأحسن الله إليه كل الإحسان!

قلت: لقد قرأت كلام مطران، كما قرأتُ مطارحاتك الكثيرة مع محرم، وقرأتُ مدحتك للخديوى عباس التى عاتبته فيها عتابًا شديدًا على اختصاصه بشوقى وحده، وعدم التفاته إلى غيره من الشعراء!

فابتسم الرجل وقال: ذَكَّرْتَنى، لقد كانت هذه القصيدة أسَّ البلاء مع شوقى، فلم ينسها، مع أنى مدحته فيها، وقلت: إن له زملاء يشاركونه الفضل، فكان هذا

كثيراً فى حقه، اذ يؤثر أن يكون وحده! سكتّ، بحيث تناول الأستاذ عطية الشيخ شعر شوقى بالتحليل المعجب، وتطرق القول إلى مناخٍ من السياسة الداخلية والعالمية، وقضية الوحدة العربية، وكان الكاشف فارس القول فى كلّ اتجاه، وقد انقلب متحمساً ثائراً، كعهدنا به فى قصائده، ثم حان الرحيل، فودّعنى الشاعر باحتفاء كبير لم أكن أتوقّعه، وقال لى الأستاذ عطية ونحن راجعون، لقد كان وجودك ضرورياً. لقد سَعِدَ الشاعر بكَ كما سعدنا بِكَ جميعًا.

* * *

الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

من منّا لايذكر كاتب اليوميات الرائعة بجريدة الأخبار، لقد كان خطًا أدبيا رائعًا أعاد لهذه اليوميات دسامتها المغذيّة حين كان يكتبها عباس محمود العقاد، وإسماعيل مظهر، وزكى عبد القادر، وغيرهم من أفذاذ الأدباء، وقد أظهر الكاتبون تحت هذا العنوان أنهم لايبدعون إلاّ إذا كانوا من رجال القلم، أمّا أن يكون الكاتب موظفًا بالجريدة، ويجدُ منْ واجبه الصحفى أن يكتب ليملأ الفراغ، فهذا ماهبط بمستوى اليوميات إلى حدّ مؤسف!

أجل، كان محمد فهمى عبد اللطيف من رجال الْقَلَم، بل من كبار رجاله، ومؤلفاتُه الأدبيّة الرصينة، وبحوثه التاريخيّة عن دولة الدراويش، وأبى زيد الهلالى، والفتوة الإسلامية، وماكتبه تحت عنوان (فلاسفة وصعاليك)، والفن الإلهى، وموازين النقد الأدبى، كل ذلك يضعُه فى الصف الأول بين الكرام الكاتبين، وحسبه أنه ظلّ إلى مدى ثلاثين عامًا يكتب المقال السياسى بجريدة المصرى ثم بجريدة الأخبار، لكن بدون توقيع، وكذلك كان يكتب كثيرًا من المقالات الأدبيّة فى مجلة الرسالة بتوقيع (الجاحظ) ولكن القراء يعرفون جيدًا أن الجاحظ هذا هو محمد فهمى عبد اللطيف.

أول لقاء:

كنتُ كتبتُ مقالاً أدبيا عن شاعر البادية الكبير الأستاذ محمد عبد المطلب رحمه الله بمجلة الرسالة، وقلتُ فيه إنه رائد من روّاد المسرح الشعرى سبق أمير الشعراء بما أبدع سنة ١٩١١م حينَ كَتَبَ تمثيليات شعرية عن ليلى العفيفة، وامرئ القيس،

وهى محفوظة بدار الكتب، وقد طبعت فصول منها ببعض المجلات الأدبيّة، وما كادَ مَقَالي يظهرللقراء حتى تعقبه الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فذكر أنى خالفتُ الحقيقة الأدبيّة فيما ذكرت، لأن شوقيّاً قد بدأ بكتابة مسرحية على الكبير فى أواخر القرن التاسع عشر حين كان طالبًا بفرنسا، ونشر فصولاً منها إذ ذاك، ثم ترك الأدب التمثيلى حتى عاد إليه سنه ١٩٢٧، وإذن فقد سَبَق الشاعَر محمد عبد المطلب فى ريادته التمثيلية، على أن شوقيّاً مسبوق فى هذا المجال، لأنّ الشاعر اللبنانى خليل اليازجى وضع مسرحية تحت عنوان (المروءة والوفاء) قبْل شوقى بعشرين عامًا! وكانت مسرحيةً مبتدئةً بدون شكّ، متواضعةً فى نهجها المسرحى، ولكنّها أول مسرحية على كل حال.

قرأت ماكتبه الناقد، فبادرت بشكره فى مجلة الرسالة، ثم سمحت الظروف بمقابلته عرضًا فى مجلسٍ بجريدة البلاغ، فقدّمتُ نفسى إليه فنهضَ مُرحِّبًا، وقالَ: إن تعقيبى على نقده سيمنعه من تعقّب مقالاتى والردّ عليها، لأنّه تعقيّب مُهذب عفيف، وأنا أتضاءلُ أمام الروح الأدبيّة النزيهة، قلتُ له: ولكن، هبْنى أخطأت فهل تَسْكُت؟ قال: تلك طبيعتى.

ثم اعتدلَ إلى الوراء، وانطلقَ فى الحديث قائلاً، لى موقفان متعارضان، فى هذا المجال أذكرُهما لك لأكشفَ لك عن نوازعى النفسية التى لا أملك عنها منصرفًا.

موقفان متعارضان:

أمّا الموقف الأول، فمع أستاذى الكبير أحمد يوسف نجاتى، أستاذ الأدب بكليتىْ دار العلوم واللّغة العربيّة، حيث نشر عدة أجزاء من كتاب (نفح الطيب) وعلق عليها تعليقًا علميا يدل على سداد بصر، وسعة اطلاع، ولكن المحقق مهما أتقن التحقيق، فسيفوته ما يجب أن يصحح من الأقوال، فنشرت نقدًا غاضبًا تشوبه لهجة التعالى، لأنى كنت لا أزال فى عهد الطلب، ولم أفهم ما يُقال عن تواضع العلماء كما أفهمه الآن، وكان الأستاذ نجاتى أستاذى بالكلية، وكأنى فى

سكرة الشباب أردت أن أقول لزملائى بالكلية إنى أصحح أخطَاء الأستاذ الكبير، وقد قرأ الزملاء ما كتبتُ وطاروا به إلى الأستاذ نجاتى، فصرت أتحاشى لقاءه، ولكنّى فوجئت برده المهذّب النبيل يغمرنى بلطفه ورقّته، مع مناقشة موضوعيّة سلّم فيها ببعض ماقلت، وجادَلَ فى بعض آخر عن إخلاص للحقيقة، فشعرت بارتفاع خُلقه الطيب، وكنت قد كتبتُ مقالاً ثانيًا عن بقية مالا حظت من الأخطاء، فَمَزَّقته لفورى، هذه طبيعتى مهما كانت مواضع الخلاف!

أما الموقف الثانى فموقفى مع الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم، حيث نظم قصيدة رنّانة فى مناسبة سياسة، وقد قرأت القصيدة فلمست فيها احتذاءً واضحًا لقصيدة من وزنها وقافيتها للشاعر الكبير أبى تمام، يمدح بها الخليفة المعتصم، فكتبت مقالاً نقديًا بمجلة الرسالة أقرر هذه الدعوى بالدليل الواضح، والاستشهاد الصريح، ووعدت بتتمَة البحث فى العدد القادم، ولكنّ الأستاذ الجارم ثار ثورة عنيفة، واتّصل بالأستاذ الزيات محتجا على ماكتبت، وغاضبًا أشد الغضب، بدون أن يكتب من النقد سطرًا واحدًا يعارض ماقلت، وذهبتُ بالمقال الثانى للرسالة، فأبى صاحبها أن ينشره، وقال: إن الجارم هائج مائج، وأصدقاؤه بوزارة المعارف قد رجونى أن أراعى خاطره، وهم أيضًا أصدقائى، فأنا مضطر.

سمعت كلام الزيات، فاتجهت بالمقال إلى جريدة يوميّة، ونشرته بها، مُوَضِّحًا ما كان من أمر الجارم والزيات معًا، لأنى لا أقبل العنف والاستعلاء.

هذان موقفان لى، أتحدث عنهما كما كانا، وإن خَالَفنى الكثيرون فى موقفى الأول، لأنى إنسانٌ قبل أن أكون ناقدًا.. ولى طبع يستعصى على التغيير.

دولة الدراويش:

أصدر الأستاذ كتابًا تاريخيًاً تحت عنوان «دولة الدراويش فى مصر» متحدثًا عن الولى الشهير «السيد البدوى»، وقد رجع إلى مصادر كثيرة لينتهى إلى أنّ أكثر ما يُقال فى هذه الناحية مختلق لا حقيقة له، وقد صحب ظهور هذا الكتاب دوىّ رنان ببعض المجلات الدينيّة التى تستهوى قراءها بتأييد الكرامات، وتسجيل

الخوارق، وفى الكاتبين من ترك الحقائق التاريخيّة إلى السبِّ والانتقاص، فكتبتُ مقالاً هادئًا، أناقش فيه ما قاله الناقدون بالتى هى أحسن، ورأيت أن أعرضه على الأستاذ فهمى لأعرف وجهة نظره، ولكنّه قابلنى بما لم أتوقّع، إذ أصَرَّ إصرارًا شديدًا على عدم نشر مقالى، وقال: أنت لا تعرف ماذا قوبلت به فى قريتى الصغيرة بالشرقيّة، حيث ذهب العامة إلى منزلنا وتحدّث الناس بأنى (كفرت) وشق الأمر على أهلى، فجاءتنى الوفود تلوم، وأنا لا أخشى النقد التاريخىّ، ولكنّ أقاربى يحاصرونني، وأنا فى حاجة إلى استرضائهم، وأخشى أن تنشر مقالك، فيجىء من يرد عليه ويرمينى بالفسوق، فتزيد النار لهيبًا حولى فى القرية، ويتحدث الناس هناك بما يؤلم أسرتى.

قلت: ماعهدتك تخشى النقد هكذا! فصاح الأستاذ: أى نقد هنا يارجب! المسألة مسألة قرية وأهل، وكرامة يظنونها تتحقّق فى بعدى عن المناقشات الدينيّة، وإذن فَمُكْرَهٌ أخاك لا بَطَل!

ثم صفق بيده، وطلب لى تحية ثانية، وقال: لقد كتبتُ من قبل كتابًا (عن أبى زيد الهلالى) فمزقت حقيقته الأسطورية ورجعت به إلى حيّزه الضئيل فى ساحة التاريخ، وهو حيّز لايجعله بطلا تاريخيا، وهو بطل شعبى، يهتم به الريفيّون فى القُرى، ويجلسون لقراءة القصص الشعبى الذى يتحدث عنه فى لذة وسرور، وقد ذاع كتابى فى القرية، وعرفوا أنى أنكرت البطولات الزائفة التى يخلعها رواة السيرة الشعبية عليه، ولكنهم لم يثوروا، ولم يتوجهوا إلى منزلنا لائمين، وذلك لأن أبا زيد الهلالى ليس شخصية دينيّة، أما السيد البدوى فشخصية مبجلة لديهم، وأنا لا أنكر مكانته كرجل، ولكنى أنكر أن يضيف إليه بعض الأدعياء أموراً لا تثبت فى ميزان التاريخ!

قلت: سأطوى المقال آسفًا، كيلا ينبعث الضجيج من جديد..

طرفة ذات دلالة:

كان محمد فهمى عبد اللطيف بحكم اشتغاله بالصحافة قرابة نصف قرن ذا

اتصال وثيق بكبار المشاهير من رجال السياسة والأدب والفن، وهو يعرف من تاريخ هؤلاء ما لو جُمع لارتفع بأناس وانخفض بآخرين، يعرف ذلك عن عيان ومخالطة، وإذا فاض فى حديثه عن ذكرياته التاريخية فهو نبع متدفق لا يغيض.

أذكر من طرائفه ذات الدلالة الأليمة التى حدثنى بها عن الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم رحمه اللّه، أنّه أفاض ذات مساء معى فى حديث عن منزلته الشعرية، وأكد أنه كان الثانى بعد شوقى فى مصر، وأن إقامته بدمنهور قد حجبته عن الاتصال المباشر بالسّاسة والصحافة، فلم يأخذ حقه من التقدير.

قال الأستاذ فهمى: لقد أقامت السيدة هدى هانم الشعراوى مسابقة شعرية لأدباء الشباب فى موضوع وطنى، وتألفت لجنة التحكيم من كبار الشعراء إذ ذاك، وهم خليل مطران، وعلى الجارم، وأحمد محرم، واجتمعت اللجنة وأصدرت قرارها، وأقيم احتفال لتوزيع الجوائز المالية للفائزين من الأدباء، وهى جوائز مغرية بالنسبة لقيمة الجنيهات فى هذا العهد، ثم رأت السيدة هدى الشعراوى أن تخصّ لجنة التحكيم بمادليات تقديرية، لأنهم أرفع من أن ينالوا الجوائز المالية، ففرّقت المادليات على الشعراء الكبار، وكان من حظى أن أجلس جوار الشاعر الكبير أحمد محرم، فلمحْتُ فى وجهه دلائل الحسرة والألم، فقلت له فى همس: أخشى أن تكون مريضًا ياسيدى، فقال صامتًا: ماذا أصنع بالمادلية التقديرية يا أخى، وليس فى جيبى أجرة القطار الذى سيحملنى إلى دمنهور، إن مطران والجارم يحمل كل منهما البكويّة ويعيشان فى رخاء وهناءة، لقد كنت أتوقع مكافأة مالية للجنة التحكيم إذ قمت بعمل شاق لابد أن يؤجر، وهـأنذا لا أجد ما أسافر به، وهنا قام الأستاذ فهمى إلى حيث تجلس السيدة هدى هانم الشعراوى، وأسرّ إليها ببعض ماسمع، فدهشت لما فاتها من أمر الأستاذ محرم، وأمرت سكرتيرها الخاص أن يضع خمسين جنيها فى مظروف يحمله فورًا للشاعر الكبير، وفوجىء محرم بما صنع الأستاذ فهمى، فناداه مستفسرًا، وقال: أخشى أن تكون قد هتكت ما أستر، فقال أبدًا والله، ولكنّ المال كان مُعدا من قبل ليصلك عن طريق البريد!!

مع يوسف وهبى:

قابلت الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف ذات مساء بمقهى رضوان بالعتبة الخضراء، فوجدته مرحًا طروبًا، وكأن ثروة هبطت عليه من السماء، ثم قال لى: ستتناول معى طعام العشاء فى محل الكاشف الليلة، وهو أقرب مطعم إلينا بالمقهى، قلتُ: لا أعلم أنك من ذوى الثراء والبذخ حتى أستجيب، قال: وهل العشاء يستدعى ثراء؟ هلمّ يا أخى، وسأحدثك عن يوسف وهبى الذى هددنى بالتليفون عصر اليوم بأنه سيرفع قضيّة ضدّى باسم الكرامة المصرية، فقلت له مستهزئًا: والله إنى أتعجل رفع هذه القضية، وأتمنى لو تعقد المحاكمة هذا المساء! فسألته: ما السبب فى هذا كلّه؟ قال: لقد أصدر الأستاذ يوسف وهبى بيانًا باعتباره نقيبًا للممثلين يستعدى وزير الشئون الاجتماعية على الشركات الأجنبية التى أصدرت نسخاً من أفلامها ناطقة باللّغة العربيّة، لأن عرض هذه الأفلام فى دور السينما المصرية سيضاءل من كسب الأفلام المصرّية، وحماية الفنانين بمصر من شأن الوزير، وقد انتقدتُ هذا الطلب المتعسف، لأنه يمنع منافسة الأفلام الجيّدة باعتبارها خطرًا على أفلامنا الضعيفة، وقلت إنى لا أدافع عن الأجنبى بحال، ولكن يجب على الأفلام المصرية أن ترتفع إلى مستوى الفن العالمى، لا أن تكون تهريجًا وزيفًا وإثارة جنسيّة ثم يطالب أصحابها بمنع الفلم الجيد، ومثل يوسف وهبى فى ذلك مثل من يطلب من المؤلفين العرب منع ترجمات المؤلفات الغربيّة لأساطين أدباء أوربا كيلا تنافس مؤلفات طه حسين وتوفيق الحكيم! وهذا مالا يعقل بحال، وما كاد نقدى يذاع حتى ثار يوسف وهبى وكتب يقول إننى أخدم الشركات الأجنبيّة بما أدعو له، وينصحنى أن أرسل مقالى إليها، لتبعث لى بمكافأة سخيّة باعتبارى صديقًا للاستعمار الأجنبى. وهو ردّ زائف يترك نقطة الخلاف إلى تدجيل غوغائى لا قيمة له، فسارعت بالرد المستنكر، وقلت: إن ما قاله نقيب الممثلين شبيه بما يلقيه على المسرح من تشنجات انفعالية تُضحك ولكنها لا تقنع، وأنه أثبت أن إخوانه من الممثلين يتاجرون فى الفن ولاينشدون ارتقاء الجمهور، والجمهور مضطر إلى التخلّى عن موائدهم إذا وجد الزاد الدسم عند الآخرين!

هذا ما قلته، ولا أدرى من أين عرف يوسف وهبى رقم التليفون الخاص بى، ففتح ميكروفونه علىّ، ليعلن أن الأمر سيرتفع إلى القضاء متهمًا إيّاى بمناصرة الاستعمار! وكانت فكاهة بالنسبة إلىّ!

رحيل وفراق:

ظللت أحتفظ للأستاذ فهمى بوثيق الود، وكنا نتقابل كثيراً لنتحدث عن الأدب والثقافة فى ارتياح، ثم قرأت النبأ الأليم عن رحيله، فعزّ علىّ أن يذهب هذا النابغة الأزهرى بدون أن تُقام له حفلة تأبين، وكنت عميداً لكلية اللغة العربية بالمنصورة، فوجهت الدعوة إلى حفل تأبينىّ بمدرج الكلية يحضره صفوة الأصدقاء والأدباء من عارفى قدر الراحل الكريم، وتحدد الموعد، وأعلن عنه فى الصحف، فأم الجمهور مدرج الكلية، وجاءت أسرة الراحل ممثلة فى أبنائه الكرام وبنى أعمامه، وأفاض المتكلمون فى مآثر فهمى، بحيث أخذ كلّ متحدّث ناحية خاصة من نواحى نبوغه، ولو قدّر لهذه الكلمات أن تجمع فى سِفْرٍ خاص لكانت ترجمة رائعة لحياة الكاتب واتجاهاته الأدبية، وكانت جريدة الأخبار اليومية قد أرسلت مندوبها لينقل إلى القراء خلاصة الحفلة فى مكان بارزٍ شغل حيّزًا مقبولا، وقد ذهبت أصداء الحفل، وبقيت ذكرى الأستاذ وضيئة مشرقة كأسلوبه المنير.

* * *